فوق جمر اليأس

ليليان

أنشب الخريف مخالبه فى أيامها وفقأ عيون المعجبين بجمالها .. تحطمت مرآتها وانطفأت شمسها .. فانغرزت فى الضباب فى فستان من ضباب .. وبكل غضون وجهها صرخت يأسها .. سمع الزمن صرختها وضحك على غبائها .. فالمرأة أبدا زهرة لاتذبل أوراقها . فقط يشيب شعر أطفالها .

انقضت عفاريت اللحظ على الأراضى الروسية وحكمت بالموت جوعا على الفلاحين .. فقام تولستوى بتنظيم حملات إغاثة للضحايا المتجاعة .. أمضى عامين فى جبهة البؤس يداوى فيها جراح الفلاحين ، ويهاجم بقلمه الأغنياء الذين ينهبون قوت الشعب ويمتصون دماءه .

ويرسل إلى سونيا البعيدة عنه ، أحلى كلمات الحب ..

ثم مع سقوط الأمطار وعودة الابتسامة الخضراء إلى الأرض ، عاد تولستوى إلى بيته ، وإلى تلميذته من حياة الترف التى يعيشها ..

إشتد حنقه على نفسه وصب جام غضبه على زوجته .. تحملت سونيا نيران غضبه ولكنها لم تتحمل توقد علاقته بصديقه وابنه الروحى تشرتكوف .. اندلعت نيران غيرتها والتهبت سعادتها الزوجية .. كما ذكرت فى الأسبوع الماضى .

فى النهر الأبكم للزمن الأسود

تحالف الزمن مع الدنيا على تنغيص عيش سونيا .. سطا على نضارتها وقهرها .. أذل جمالها وأهانه .. بطش بشبابها واغتاله .. دبر لها مؤامرة للإطاحة بآمالها وأحلامها .. أعد لها يوم ٢٢ أغسطس ١٨٩٤ كعكة عيد ميلادها ، وغرز فيها خمسين شمعة ، وأرغمها على أن تطفئها .. أحنت سونيا رأسها للزمن ، ونفذت أوامره .. نجحت المؤامرة .. انطفأت شمسها وسحق ليلها نهارها .. شقت طريقها فى الظلمات وهى تحمل على رأسها قارة من الضباب .. بكت بصمت وهدوء وانتظام .. تحولت عيناها إلى بحيرتى أحزان تعكسان على صفحتيهما أشجان الدنيا .. رثت الأشجار لحالها ومدت لها أغصانها .. ارتمت سونيا فى أحضانها وأخفت رأسها فى أوراقها .. اعتصرت آلامها الأغصان فأصيبت الأشجار بنوبة يأس ، عانقت سونيا يأسها ، وهذا الحد ناهت معه فى بحر الحسرة .

لمسدها راهب الحياة وحامل الوعود ، غمر بها وجنانها .. أصيبت فجأة بداء الصمت وسكتت عن الكلام .. لم يعد يناجى نفسه ويحكى إلى نفسه مغامرة الحياة .. لم يعد يعزف بدمه أنغام الحياة .. لم يعد يصحب بلحنه الإيقاعى القمر وهو يدور حول نفسه مع كل شهر قمرى .. لم يعد يرن فى جسدها صدى خطوات قلب الكون ودقات ساعة الزمن .. جسدها فقد الكلمة .. فقد مفتاح الحياة .. لم يعد يتكلم ويصرخ ، ويضحك ويبكى ، ويتألم ويعترف .. لم تعد تسيل منه الحياة بدمها ودموعها ، وكدها وعرقها .. جسدها فقد الأمل فى الأمل .. إنه جسد بلا وعد .. جسد قطعت عنه الحياة .. الزمن هذا الوحش المتحجر القلب امتص دمها وحرمها من صنع معجزة الحياة .. الحياة لم تعد فى قبضة يدها تمنحها أو تضن بها كيفما تشاء .. بعد أن كان دمها كنهر النيل « رب الرزق الوفير » و « المحيى » و « والد الأرباب وخالق الكائنات » ، صار دمها كنهر أبكم أعرس أصم ، يجرى فى عروقها فى هجود الصحراء ، حاملا فى كرياته البيضاء والحمراء الموت الخطف والقرين الأسود للوحشة .. عمرها بكل سنيه الخمسين يؤكد لها هذه الحقيقة المرة ، ويقول لها بصوته العجوز : وحشتك ستكون طفلك الصغير ذا الشعر الشائب .. لكهربت أوتار شجنها وشجاها .. شيب الهم قلبها وتلفع بالشيب حزنها .. وكالطائر الجريح أحنت رأسها تحت جناحها .. فسقطت قارة الضباب على الأرض والفجرت .. تناثر الضباب حولها بجماله وصخوره ، وبحاره ومحيطاته .. فانغرزت فى الضباب فى فستان من ضباب .. عزفت فرقة اليأس الموسيقية فى صدرها لحن موت الشباب ، فغنت الحسرة على أنغامه نشيد حسرتها .. كيف تحمد نارها وتسكن أنها ؟ ... بالدموع ! .. لا بالدموع الصامتة إنما بالدموع الرنانة الصداحة .. فإذا كانت الحمرة لاتطفئها إلا دمعة .. فالحيرات لاتطفئها إلا سيول الدموع .. ولاعجب فى أن تبكى المرأة على شبابها ، فالرجال أيضا يبكون على شبابهم .. ألم يقل ابن الرومى على لسانهم :

أين منى جسمرة تستوقد
على مامضى أم حسرة تتجدد ؟
حليل مابعد الشباب رزية
يجم لها ماء الشئون ويعقد
فلا تلمها إن فاض دمع تفقده
فقل له بحر من الدمع يشهد
ولاتعجبا للجلد يبكى ، فربما
تفطر عن عين من الماء جلمد
شباب الشقى مجلوده وعزازه
فكيف .. وأنى بعده يتجلد ؟

سجن المرايا

منحت سونيا دموعها حقها فى الحرية .. تركتها تهن وتحن ، وتئن وتخن ، وتعول وترن .. ارتوت حدودها ولم ترتو غضونها .. فقد حرمها الزمن بسخاء تخاليه ، ومهما سقتها فأبدا لن ترتوى لوعتها وحرقتها .. بكت سونيا على عذابها وعذاب غضونها .. واستمرت فى البكاء .. تحولت إلى فرقة موسيقية للبكاء .. فرقة تعزف بكل آلاتها الخشبية والنحاسية ، وبكل جوارحها الوترية والكهربية ، موسيقى الدموع الروسية والبيزنطية والعربية والفرعونية .. بكت فى كل مكان لأن آثار مخالب وأنياب الزمان واضحة فى كل مكان من أرض جسدها .. وتعكسها لها بصدق مرآتها الزجاجية ومرايا الغرفة .. عيناها زوجها ابن الست والسنين سنة تقولان لها بشهادة ، ما قاله من قبل الشاعر العربى أبو دلف :

شيب الرجال لهم زين ومكرمة
وشيبكن لنكن الويل فاكتئبى

والشيب اشتعل فى أوراق رأس عيالها الكبار سبح وثانيا وابليا ، وراح يغمس بمحاره الأبيض سواد ليل شعرهم ، ليدكرها بعمرها .. ومرآتها التى كانت بالأمس قرة العين ، هاهى ذى الآن قذاها .. بأوبائها وسواد ليلها .. بهجة عينيها صارت نكد عينيها .. يائسة من مرآة نكدة ، تعاندها وترفض أن تعمى عينيها عن عينيها .. كل يوم تعكس بصدق صورتها .. كل يوم تفضح شيبها وغضونها ولغدها وترهل لحمها .. كل يوم تنشد لها بحكمة النابغة الجعدى :

المرء يأمل أن يعيش وطول عيش قد يضره
تفنى بشاشته ويأتى بعد حلو العيش مره
وتسوءه الأيام حتى مايرى شيئا يسره

وكل يوم يزداد نكد سونيا وغمها .. وكل يوم تعمل بنصيحة زوجها وتعانق الكآبة .. وكل يوم تنشد بيأس الشباب وتمد يديها إلى الزمان ، فيختبئ فيها الضباب ويملؤها بغيوم من الدانتلا السوداء .. كل يوم تتوسل وتتضرع إلى مرآتها أن تتحايل معها على الزمن وتخدعه .. أن تهديها أزهار الربيع فى باقة من المساحيق .. أن تظلل هالات عينيها السوداء بأوراق الورد .. أن تنحت اللازورد على جفونها .. وأن تنثر زهر الزمان على خدودها .. أن تلمع كآبة نظراتها وتعيد إليها بريق اللآلئ .

لكن المرآة يوما بعد يوم ترتو إليها بصمت اليأس .. فقد أصيبت هى الأخرى بداء اليأس .. يئست من نفسها .. ومن سونيا ومحاولاتها اليائسة لمحو آثار ضرب وعض ولكم وكدم الزمان لها .. امتنعت بصدق المرايا عن الكذب .. وللريح نفسها غرزت فى سونيا كل أشواك الورد والنباتات الشائكة .

جنت سونيا .. دمى على الشوك أنها .. تململت فى أتون اليأس .. غارقا شح الموت .. أتصدده ؟ .. لا .. لايمكن أن تتقدم خطوة أخرى فى الحياة .. لا ! ..

لايمكن أن تسير إلى مالا نهاية فى موكب جنازة شبابها وراء نعش جمالها .. أتنتحر ؟ .. لا ! .. إن زوجها ، طفلها العجوز ، فى حاجة إليها ، وأيضا عيالها .. ماالعمل ؟ .. .. أن تتظلم من مصدر بلاياها .. من مرآتها ، ومن عيونها التى تجهل فن الخداع والغش والكذب .. حملت فأسا بين يديها ، وبحنون الضبابة الرمادية انقضت على مرآتها ، وضربة بعد ضربة حطمتها .. انكسر قلب المرآة ، واتدق عنقها ، وتفتتت عيونها ، ومائت نظراتها الميتة .. ارتاحت سونيا .. لم تعد ترى نفسها .. شكرت فأسها ، وبتلقيها قبلت رأسها قبلة الامتنان .

انزاح الهم عن قلبها .. نقص وزنها .. أصبحت فى وزن الريشة وخفة جناح الفراشة .. بسطت جناحيها وطارت فى أرجاء حجرتها .. فتحت عينيها وأمتعت بصرها بنعيم دنيا بلا مرآة .. بلا عيون .. بلا حجم ..

ثم انطلقت تجوب قطرة الندى الوردية خارج حجرتها .. هبطت على أرض الواقع ومشت فوقها بخطوات دبة بل دبا صورة .. فيها وهناك مرايا ومرايا ومرايا .. فى البيت ، فى الغيط ، فى الشارع ، فى عيون الخيل ، فى دولابها ، فى حلبة يدها ، فى مياه الأنهار ، فى ماء الدلو ، فى زجاج النوافذ ، فى عيون العرجس ، فى أنفاس النفسج ، فى شقاوة الأطفال ، فى لهو الشباب ، فى نظرات الناس ، وفى كلامهم ، وفى ضحكاتهم ، وفى ابتساماتهم .. دائما أبدا مرايا ومرايا ومرايا .. ألا يمكن ترويض المرايا ؟ .. إن فى يدها فأسا .. إذا غلبتها المرايا فستضربها به .. إذا أهانتها فستكسرها وتخرجها إلى خافيت .. لكى المرايا سجن يمتد سوره على طول الأرض ، وعدد نزلائه بعدد جماد ونبات وحيوانات وسكان الأرض .

قلم فى سن اليأس

مشت سونيا فوق جسر اليأس ، فبت عشب الأمل تحت قدميها .. لاحلاص لها إلا بالثورة ، تعتقل أحزانها وأشجانها ، وبيديها تخنقها .. تتحرر من يأسها .. تقشقش عن كل ماق قلبها من غصص .. تنتزع الأشواك من جلدها وتغرزها فيمن حولها .. وهذا ماحدث .

هاج قلمها .. احتقن وجهه .. ارتفع ضغط الدم فى شرايينه .. استوطن الصداع فى رأسه .. داخ .. تصبب عرقه على الورق .. كتب :

« الدنيا بأسرها تتآمر علىّ لتبغيض عيشى .. الكل يضطهدنى .. ليوفونشكا جلادى ، وأولادى لايجلبون فى سوى الهم .. ليون أصيب فجأة بالنيوراستينيا .. وفى حاجة إلى علاج بالصدمات الكهربية .. فانيشكا الصغير الرقيق دائما مريض .. سيرج يعيس حياة اللاأخلاقية .. إيليا نحيس فى زواجه ويعثر أمواله عينا وشمالا .. تانيا وماشا تزمنان بمبادئ أبيهما إيمانا أعمى ، وياسم مبادئه تبلدان الزواج ، ولاتخططان إلا بمرتبه .. وجميعهم كأبيهم ، أنانيون ، ومتهورون ، ومستهترون ويفتقرون إلى الإحساس بالمسئولية .. هذا مع فارق أن أباهم طوال حياته حاول أن يتغلب على هذه العيوب ، فى حين يستسلمون هم لها ... »

ثم هرش قلمها رأسه وكرش بليوفونشكا .. وكتب :

« ليوفونشكا يستند بكل جوارحه حياة البساطة ليعقد حياتى أنا .. إن تمسكه بالنظام البالى أدى إلى نعى وإرهاق ميزانيتى ، إذ ينبغى على أن أعد لكل وجبة طعام قائمتى طعام حافلتين بالأطباق الشهية البالية واللابالية .. كما ينبغى على أن أنفق على الأكل ضعف ماكنت أنفقه .. إن مواعظه الطنانة عن الحب والمحبة أدت إلى إهماله لأسرته ، وفتح أبواب بيته لكل من هب ودب .. إن تنازله عن ثروته وأملاكه أدى إلى انتقاده ، وادانته لكل من تملك روبلا .. أو قيراط أرض .. »

ثم نبح قلمها وعض ليوفونشكا .. وكتب :

« إنه تحرر من كل التزاماته ليظل بها كاهل .. أنا المسئولة عن بيته وعياله .. أنا المسئولة عن إدارة أعماله والتعامل مع الناشرين الروس والأجانب .. أنا المسئولة عن استقبال أتباعه والمعجبين به من مشاهير ومغمورين ، والترحيب بهم ، والترفيه عنهم ، وتكريمهم بإقامة الولائم الفخمة فهم من حبى لامن حبه .. أنا المسئولة عن كل شئونه .. ثم بعد كل هذا الجهد الذى أبذله لإرضائه ، يحتقرنى لأنى أهتم بكل هذه « التفاهات » ، ويتطوى على نفسه ، ويغرز سموم أنانيته ، ويتقلدنى بعنف وقسوة .. وهو ماذا يفعل ؟ .. يمتطى حصانه ويتنزه فى الغابة ، يكتب قليلا ويتكلم كثيرا .. يعيش حيثما يحلو له .. لايبالى بأسرته ولايفعل شيئا لها ، يتنفع بكل من وماحوله ، بلهفة العيش فى البيت ، مساعدة بناته له ، تملق مريديه له ، خضوعى له وتكدى من أجله وهمى بسببه .. وهذا الظمأ إلى المجد الذى أبدا لايرتوى ، والذى من أجله ضحى بكل شئ ، ولايزال يضحى .. »

ثم خاف قلمها من حكم رجال الغد عليها ، وبعد أن دافع عنها أمام أفراد أسرتها والجيل المعاصر لها ، قرر أن ينقل قضيتها إلى محاكم الغد .. وترافع عنها أمام الأجيال القادمة .. وقال ضمن ماقال فى مرافعته :

« إن الذين سيكتبون سيرة العبقرى العظيم ليون تيكولا يشيش تولستوى سوف يقولون إنه كان يستغنى عن خدمات خدمه ، ويتوجه بنفسه كل صباح إلى الخوض ، يدلى الدلو فى البئر ، ثم يحمله فى يده ويعود به إلى البيت .. ولكن أيعرف أحد منهم أنه خلال الثمين والثلاثين سنة لم يقدم قطرة واحدة إلى أحد أبنائه ، ولم يخض خمس دقائق إلى جوار سرير مريض منهم ، كى أنهم أنا

ملحقة راحة أنقط فيها أنفاسى ؟ ! ... »

عبقرى ولكن تيس !

ثم اقترب قلم سونيا من المتهم ليعرف رأيه فيما نسب إليه من تهم .. فتاح من تولستوى عبر عطر تيس .. تعلقت حباته القلم بالرائحة التيسية .. فسد أنفه وكتب :

« يوما بعد يوم يزداد نفورى وتقززى من زوجى .. إنه يتجاهل أبسط أصول وقواعد النظافة .. أيفعل ذلك عمدا ليتقرب من الفلاحين الذين نادرا مايغتسلون ؟ ! .. ماذا جرى له ؟ .. شتان بين حاله بالأمس وحاله اليوم .. بالأمس كان يعنى بنظافة بدنه ، ويحرص على أناقته أشد الحرص ، ويمشط شعر رأسه وذقنه ، ويقلم أظافره ، ويرش سحابة من ماء الكولونيا حول وجهه وتحت إبطه .. أما اليوم فإن دخول الحمام بالنسبة له حدث ، وأى حدث ؟ .. إنه يخاصم الماء والصابون .. لايستحم .. لايغسل قدميه ولايديه ولامرفقيه ولاركبتيه ولارجليه .. إن قدميه من شدة الوسخ العالق بهما ، تعلوهما قشور سوداء .. ولاداعى لذكر دن إبطه وما اجتمع من الوسخ فى أظافره .. يكفى أن أقول إن رائحة التيس الكريهة تفوح منه ! .. اشمئزازى من قذارة زوجى يؤلمنى جدا .. لكى لم ولن اعتاد أبدا على القذارة والروائح الكريهة .. هذا محال ! ! وبخته مرارا وتكرارا .. لكن بلا جدوى .. أصر على نعاسته ليتكيف بها .. لاأعرف كيف أعبر له عن قرفى منه ولاكيف أحفزه على النظافة .. غلب حارى .. »

ولو كانت سونيا عربية لاروسية لاتخذت مشكلتها .. كيف ؟ .. بأن تذهب من كنوز الأدب العربى كل مايحلو لها من نادر وشعر يعبر عن تكتها بقذارة زوجها ، وتلقن فى رحمه بأحلى الكلمات وفى كل المناسبات ، حتى يدرك بعبقريته الفذة أن النظافة من الإيمان ، فإذا حاول أن يختلس منها قبلة ، لقالت له :

وان امرأ يقوى على لثم ثغره
على الضغط والتعذيب فى قيده يقوى

« وإذا ضحك قالت له :

كأن مقالع أضراسهم
إذا ضحكوا جيف الخنافس

وإذا اقترب منها ، وفاحت الروائح النتنة من إبطه وجسده .. لقالت له :

وابسطك قابض الأرواح يرمى
بسهم الموت من تحت الثياب
و : رمحه ريح كلاب
هارشت فى يوم طل
و : بارحمينى لبحوره من نتنه
كم فى الكنيف يضيع ريح العنبر

وإذا اضطهد قوما من ثيابه وأصر على ارتدائه دون غيره مهما بلغت درجة قذارته .. قالت له : لكل شئ راحة .. فراحة البيت كنسه ، وراحة الثوب طيه .. ولوبك يقول لك : اطول أجملك .. وأكرمنى داخلا أكرمك خارجا !

وإذا أكل تفاحة .. قالت له قصة تفاحة عبد الملك بن مروان الذى كان يسمى أبا الذباب لأن الذباب كان يموت إذا قرب من فيه ، لشدة نتنه وبخر رمحه .. وقالت له : يحكى أنه فى يوم من الأيام عض عبد الملك بن مروان تفاحة ، ثم رماها إلى إحدى زوجاته .. فأحضرت الزوجة سكينا وقطعت به موضع عضته .. فقال لها : « مالصنعين ؟ » .. فقالت له : « أميط عنها الأذى » .. فطلقها !

لكن لم تملك سونيا لزوجها قصة تفاحة أبى الذباب لأنها لاتعرفها .. ولم يطلق تولستوى زوجته لأنها هى التى قررت أن تطلق الحياة .. ولكن هذه حكاية أخرى يطول شرحها .

قصة قصيرة

الطبلة

محمد قطب

١

عند منحنى الحارة ، وقف . عيناه لا تستقران ، ومقلاعه يتلوى فى يده ، يلوح به فى الهواء ، يضرب به الفراغ ، يحاول أن يحشوه بحصاة مدببة . أسند جزعه على الجدار وأخرج بلحة حمراء ظل يدعكها حتى هرسها ثم نثرها على الأرض . لمح حبل النحل دقيقا ملتويا أسفل الحائط ، وثعلبين يحاولان فى عزم واضح الدخول بنصف حبة قمح فى شق مغمور . تسحب فى صمت ، وحدق فيهما ، عز عليه أن يرى النحلتين تجاهدان فى حمل نصف حبة القمح . عطف عليهما . وجمع فتات البلحة المهروسة . وملأ الشق . ارتاعت النحلتان ، ثم انفرط حبل النحل . وعجز عن الوصول . اغتم فى نفسه حين رأى النشيت ، لكنه . حين أقام ظهره واستقام . اعتقد أنه سيعثر على شق آخر لا محالة . اصطدم فى تحته بجسد ضخم . استدار فواجهه وجه الشيخ . ابتسم لكن الشيخ لجهم . حاول أن ينطق لكن قبضة الشيخ حين جذبته أمانت فيه المحاولة . نفضه فى قوة وقال :

– تعلم الأدب . واحفظ لسانك

ماجت معالم وجهه ، وابيضت عيناه ، وتهدل شدقه فأزاح لبدته ، وأصابه الهود مفاجئ . وتمتم

– ماذا تقصد ؟

عرك أذنه وأطبق على فمه حتى لا يصيح

– لسانك بنالى . وتذكرنى بالسوء

– لكنى أهل .

كبس لبدته فوق رأسه وطوق عنقه بمقلاعه . ووضع فى سبابته حفنة حمص

– لأنك أهل فلا تتحدث عنى .

هرس حبات الحمص وطيرها فى الهواء . واستحلبها حبة . حبة . وهو يحدق فى الشيخ . وطيف ابتسامة لاحت فاعوج شدقه . وسال لعابه . وقال فى حدة .

– لم أتحدث عنك . تحدثت عن زنية امرأة شيخ البلد

نهره الشيخ وسحبه من يده ، طلب منه أن يتركه ليبحث عن شق جديد للنمل

– حرام أن يضل النحل ولا يهتدى إلى بيته وأتحمل أنا وزره .

وأنت عارف بالله . ياشيخ . النحل سيموت . حرام .

واشتد صياحه . ولوح بالمقلاع . ووقف نمر العين وتصلب الرمش . فخاف الشيخ الفضيحة . ومضى .

« فى القبو المبنى بالطين . وقف العارف بالله . . (تقولون عن الشيخ إنه العارف بالله –) يتذاكر . يتأيل . تساقط من شدقه زغوة مزبدة ، يتصارع على لحسها الأتباع ، جريت أرمى زغوتى – فأنا الآخر فى زغوة تسقط من شدق – علّ أحدا يختصها ، وحرصت أن يعلو صوتى ، وأنهم ذكرى ، بل حرصت على اختفاء المقلاع حتى يسهل الأمر . لكن الأتباع أحاطونى . ضربونى فسقطت ، وحين قبعت تحت قدميه ، شممت رائحة عطر . كان عطر زنية . كانت تدعك جسمها به حين تدعوك لتغطى على رائحة السباع فى جسمى . ، وحين ذهبت إليها حزينا أخبرها أن العارف بالله يتعطر بعطرها . صرخت فى وجهى وباحت بالصوت . طلبت من الناس أن يغيثوها . فقد تجرأ الأهل . ومد يده . ، وحين دار العارف دورته . درت – تحت قدميه – دورتى ، فرد كفه فسقطت قطع النقود ، فردت كفى ، كانت كفه محروقة ، وكانت كفى صلبة . طلبت عواطف من العارف اللبوس ، فقرعت صارخا . ياشيخ . النحل سيموت . حرام . وفردت مقلاعى وطوحته . طارت عمامة الشيخ . العارف بالله . فمكث النساء . ما ذنبى أنا . الرجال يخاصمونى . ما عادوا يذكروننى باسمى . أهل . أهل . كيف أكون السبب فى بكاء الحريم ؟ يخاصمنى الرجال من أجل الحريم . الحريم تبكى لأن اللبوس الخموس بزغوة العارف بالله جف ، ونضب ، وما عدن يذهبن إلى القبو المبنى بالطين . ليُودِعْنَ قطع النقود . فمن الحق . صحيح فمن الحق . وإذا لم يكن على زغوة العارف بالله البكاء فلمن يكون . لكن ما شأن الرجال ؟ . صحيح ما شأن الرجال ؟ »

٢

دوّت الصفارة ، يذكرها من بين جميع أنواع الصفارات . فهو لا ينسى رنين صفارة « العفير العجر » . طالت رقته وطالت عينه على الساعها ، حدش الصوت السمع ، زحف الرجال والنساء والصبية ، هلع ينفخ من العيون وغبار يتطاير فى الجو ، خيطات الأرجل والأقدام هرولة صاخبة ، لمح امرأة تولول وهى ترمى طرحتها فى الهواء ، يركض البعض تجاه الحارة الأخرى و « العفير العجر » يسرع نحوه رنين صفارته لا ينقطع وعصاة الخيزران تعلو بيدا تقبض بده اليسرى على ذيل جلبابه فتبدو نكة سرواله تدور وتلتف حول ساقيه : قطع عليه طريقه ملوحا بمقلاعه .

– ماذا جرى ؟

نحّاه بقوة ، لكنه خطف صفارته بسرعة وظل يدور حول نفسه وحول العفير . يصفر ويصفر . ويصفر .

– ليس وقته يا أهل

زغدوه بشدة فصرخ بحدة ، كما لو كانت صرخة قد خرجت لتوها من مستنقع الألم

– ترفقوا يا عفير يا عجر

لم يمهله . صفه ومضى يجول

– يا أهل

طوح بمقلاعه فأصابت الحصاة مؤخرته . وقف يترنح وهو يكز بأسنانه ، وهو . ينفجر من الضحك . يجلع لبدته . يقذفها فى الهواء . يخطها بالأرض . يدبدب برجله كمهبوش – يفتح شدقه . يتلوى اللسان على الخابين . يمسح زغوة مكومة حول الأشداق . يحس حافة شفته السفلى ثم ضحك ضحكة متواصلة مرتجفة . ومطّ صوته فى نهكم

– يا عفير يا عجر .

وقف يبتسم للناس ، يتلفت بحدة وبسرة . ينظر تارة إلى الرجال وأخرى إلى الحريم . يمد يده ليوقف صبية أو صبيا . يود لو أن أحدا منهم رآه وهو يرشق العفير بالمقلاع . لكنهم يولون عنه فى إهمال (فليس وقته يا أهل) . كبس عنهم . نفضوه من أمامهم . ولما أحس بزغزغة تحنى إلى الشارع الخلفى .

« أنا المعشوق والمطرود ، أنا العاقل والأهبل . فى المقابر يحلو اللقاء . رحت وراءها ، كانت القلب الأخضر الذى يحوطنى دفئا . أحس لزوجته وصهده ، أحس نبضه . تأخذ يدى بين كفيها فأضيع فى وهج العين . بيضاء مدعوكة كالمهرة . سرت وراءها بنادينى صوتها ، تتحرك فوق المرح والنصوت حزين والأهة حرى ، علقتنى على مشجبها فعبدتها . أولتنى ، أطعمتنى ، سحبت منى هوسى وأرستنى على شطها ، تظلنى جدائلها . لم تكن مثلهن . كن جميعا فيا . فتميزت . وحين تركتنا هوى فينا الهوى وهبل القلب . آتى وراءك . مهووس القلب ، مفقوء العين . فأنت بدلى . وقبلك نهايتى . فتحوه . وأودعوك . ملفوفة فى قماش أخضر مطرز . بلون عينيك . من يمشى الآن ؟ من يجذب على ؟ . من ؟ أولول كالخريم . وأطوف حولك . والقبر غارق فى صمته الطويل . وأنا ألف حولك . والقبر يبعد بك . وأنا ألف حولك . والناس ينسربون . وأنا ألف حولك . لم يبق إلا صوت الصمت . والخلفاء تتأرج فوقك ، تحتى بك . وصوتك ينادينى . وأنا ألف حولك . لكنى لم تطاوعنى نفسى . فجئت أمام المدخل . لا تجزعى فسأظل أجئو لك . وصوتك ينادينى . وأنا أجئو لك . والنداء رهيب ، وقلبى يخبو لك نادتنى باسمى . النداء همس وألم . تتأنين . وأسمع اسمى . هـ . هـ . لا . . ل . . هلال . يأخذنى الصوت فأقرع . من يقدر أن يأخذنى منك . أو يأخذك منى . جئوت وجئوت وجئوت . وفرشت أصابعى . وحفرت وحفرت . أكنت أريد أن أدخل إليك أم كنت أبغى خروجك . وغاص ذراعى كله . و . واحط على رأسى ذوى هائل . القادمون . من أين جاءوا ؟ . ورانى فى الحياة . ورانى فى الموت . من أين جاءوا ؟ . لابد أن تخبرينى . القادمون . كتلوك وأخذوا منى اسمى . أيمكن أن أفعلها ؟ أيمكن أن أطرلك فى الموت وأنت الحقيقة فى الدنيا . علقوها فى رقبتى وسحبوا منى اسمى . . »

٣

الزحام شديد ، والأصوات تخلط وتتعالى ، صراخ النساء عالٍ كتبايت الرجال ، وفى الوسط والمقدمة ، الجراديل والبلاليص ، تهتز فوق الرءوس وتنتفض فى الأيدى . والعفير ينفخ . يصرخ بصفارته ، يلوح بعصاه ، أغاظه مرآه . فلف وسطه بمقلاعه ، وكبس لبدته وعوج فمه ، حين أراد أن يسأل رأى عواميد الدخان ، وسلاهيب النار مزمجرة غاضبة ، دفع بذراعه الجميع . التصق فى اقتحامه بمؤخرة امرأة ، حاول أن يفلت فلفحته الجمع ، خبط الأرض برجله ولوى عنقه ، زوجة شيخ البلد . ماتا والنار ، مط رقبته وأدار عينه علّه يرى العارف بالله . نظر إليها فانكسرت

فيها ، ومدت يدها تسحبه مال عليها . همس فى سخرية

– ليس وقته يا رزينة .

– الناس كلهم هنا .

نظر إليها فى غل . صرخ صرخة مدوية . لسوعها بمقلاعه وخاص فى الجمع . حاول أن يسخر . أن يضحك ، أن يرمى من القلب بالمع . لكن الفم بطبق والحنجرة ترم الوجه ويرتفع صوت حانق .

– ليس وقته يا أهل .

« ستظلوننى حين تحتاجون إلى ، ستظلون تبحثون ، لكنكم تحدقون على فى داخلكم . أنا الكاشف والمكشوف أنا الداخل والخارج ، المعارف والجاهل . الأهبل والعاقل . أنا . أنا . »

واشتدت قبضته ، لكن عنق الرجل كاد ينقصف ، خلصته يد قوية فابت العروق النافرة ، وجحوظ العين . غاطأ رأسه ، واعتبر أن الناس فى زحامهم لا يدرون ما يفعلون . تتحرك حواسهم دون أن يشعروا .

٤

لم يدر كيف استطاعت هذه اليد الصغيرة الناحلة أن تقبض على يده وتحكم الضغط . نظر إليها فضحكت ، وهأهأت . كان صوتها له طعم حبة التوت . وفى عينها وهج النجمة التى يسهر لها الليل حوله . دفعتها الأرجل فارتعب الوجه ، قبلها وحملها على كتفه . أعطاها المقلاع تلمع به الرءوس المتشددة .

– أين أنت ؟

خاض بها الجمع وهى تخبط صدره برجليها .

– انتظرتك فى الغيط ولم تأت

كان منظره يرجب الاشفاق ، حطت عليه بلادة لم يعرفها ، فحكك باصبعه أنفها .

– كنت أنتظر مساعدتك فى « حش » البرسيم ناهت عنه ، وعصلج لسانه ولم يقو على النطق

– أين كنت ؟

قالها فى دفعة واحدة كأنه يزيل عنا ثقيلا

– كنت أزور المرحومة

– وكانت معك الطبلة

– تركتها منذ مائت . وأنت تعلمين

– سأنتظرك غدا . وتكون معك الطبلة .

كورها ووضعها على رأسه . تخطت كما النحلة ، حركت ذراعيها كما الفراشة ود لو اتسع له ليلعبها . لتستقر فى الأحشاء . عند موطن القلب لبت الحبوبة . . دار وظل يدور ، وهو غافل عن الناس . فمن يدرى قد تحدث المعجزة ويلعبها . خطتها ، ستمر فيه من جديد ، وتحدث التكوين . دار ، ظل يدور . طار بها ، واستمر يطير .

– سأطفئ بك النار

صرخت الطفلة ، وأجهشت بالبكاء ، نشن رجل لاهث الأنفاس الطفلة منه ، حطه على رأسه ، صاح فيه بعنف

– ليس وقته يا أهبل

حين نظر إليها وهى تبعد عنه غاص قلبه والهوى عليه

« طفلتى التى لم تولد ، أحدث منى القلب ، ظلت تسرى فى الداخل ولم تخرج . رأيتها فى وجوه الصغار ، حتى إذا كبروا عادت ثانية فى لتأخذ منى القلب . لكنها ماتت ، وظلت هى فى القلب ، لن تخرج . أحيتها فى الفكر ، لكنها لن تخرج . وأنت امتدادها . أكان يجب أن تخرجى . كنت سأطفئ بك النار . لم تعلمى أن ست الكل توسدتنى . كان قلبها وسادة دفء ، وعينا محا يخلو فى ان أخفق فيه وأستتر برموش العين . وأنت ، جاء شعرك كحبائل الصفصاف . لكن أنفك مبطط كأنف أبيك . مع أنى حين لمسته كان مدببا لأنه كان أنفها . كنت سأطفئ بك النار . أتوين أنى حين قبضت على شعرك فكرت أن أطفئ بك النار ! ! . كانت تلعب بشعرى فأفرد مقلاعى ، اعطيته لك . وكان لها الراية ، كان سيفا حاصرت به « أبو زيد الهلالى » ، غرست ذراعه ، وشققت ذرعه ثم جززت رأسه . كنت ألعب تحت قدميها . وأفرك أصابعها . لكنها حين رأت الدم يترف فرت منى . وطوت الراية . أكان يجب أن تطوى فى الطفل ، حين طوحت بمقلاعى ورميت الخصوة .

« أكان يجب أن تحنى وتلوى على قلبى . »

فرد مقلاعه وحشاه بالحصا . جرى وارتكز على تتوه مصطبة مهددة ، طوح به فى الهواء . صادت عياه الرجال يتدافعون صوب النار . صادت عياه الحريم يفرغن الماء ، صادت عياه الصغار يتكشون هنا وهناك ، صادت عياه « شهلوب » النار ، وقف عياه ، وتصلب الرمش ، وتخطط نفخ صدره ، وعرى ذراعه . كان أبو زيد يشهر سيفه ، ويتخطى جواده ويندفع إلى الأمام ، يتحرك فى كل مكان ، يدور فى الهواء ويترل كالصاعقة ، حدق فيه ثم أرخى . يتأفف – كم الحباب ، رمى بجرعه إلى الخلف ، أمال ليده إلى الخلف ولم يكسها ، عوج فمه ، أفسح ساقيه ، لبى احدى الساقين ولبت الأخرى ، ورمى النيران بالمقلاع . وكلما حطت الحصوة على ملاهيب النيران ضج بالضحك ، لكن عيسة مستمرة كانت معلودة على جبينه ، أحس أن مقلاعه قلت عياره ، وأن الحصا يطيش . وأن النيران مازالت تزغرد . وأن الناس بدأوا يتسللون الحيطان ، رموا الخطب والقش ، والحريم يرمين المياه ، تطاير الشرر ذرات نيران مبعثرة . أحس أن مقلاعه لا يطاوعه وأن رجلا يزغده فى صدره ويصيح فيه

– يا أهبل النيران تحاصر دارك .

فاق إلى النفسه ، رمى بنظرة قاتلة رشح بها المع النيران والدفع

« الحريقة تحاصر دارى ! الخطب واحد ، والحريقة موصولة . سأطفئ النار ، سأدور كالنحلة فحركتى ليست لكم ، حركتى المحبوه فى الحريقة ، كنت حين أنظر إليها ليلة الحمام مستريح يحريشة الخطب وشعرها الناعم منتشرا ، يحمولا بالعبدان . أرى الخصوة فيها منكوشة ، ودفئها باهرا ، كانت العبدان ترتعش ، ويقع مقلاعى مستسلما كأبى ، كانت تحك أنفى – ولذلك أحك أنفك أنت يا طفلتى . – وتقول أنا اسعد الناس جميعا . لا تسئ الظن فى يا هلال . القمر يحاذينى اليك . وأنت تحاذينى إلى النهر ، فرحان صغيران كانا يعومان ، ويقفصان عن حسديهما خيط الخياط قطرات مياه عالقة . لكنك ولّيت ولّيت وما خلّفت . أكان يجب ألا تلدى فى طفلتى ؟ ! »

٥

بقفزة واحدة كان فوق الحائط . بقفزة أخرى كان وسط الخطب المشتعل . جذبه الرجال لكنه عاد – فى عناد – يفتش ، وكلما ينكش فيه ، ازدادت النيران اشتعالا ، خاف الرجال لكنه لا يبالى ، دفس رأسه فى عمود الدخان وأصر على النكش ، ولما لم يجد الرجال جدوى من زحزحته ، رموا الخطب فحط عليه ، كادوا يرمونه معه لولا صرخة فرح شلت حركتهم ، وكلمة زاعقة بين شفتيه تدوى « لقيتها » . كاد يستسلم للحفرة الفرح ، لكن الأيدى امتدت وخطفته من عمود النار قبل أن يشويه ، فر بسرعة ورقص ، خبط يده على الطبلة ، قبلها وخبط عليها ، طوح بها ، وخبط عليها ، احتضنها وهو يخبط عليها ، والرجال يحاصرون النار ، وهو أمامهم ينتظ كالنحلة ، ودقات الطبلة السريعة إيقاع الحماسة ، وكانوا كلما رأوه يدق على الطبلة ، ويشير بالمقلاع ، إلى الدخان والنار والخطب والخشم ، يتحركون فى اندفاعة قوية ، مسوقين إلى الحركة بلا وعى ، كأن المقلاع عصا سحرية ، وكأن الدق ايقاع نغم ، والنابيت تضرب النيران تخمدها ، والأيادى تناول الجرادل ، والمياه تحاصر النار تطفئها ، وحين رأى النيران تخبو ، وتتلاشى ، ترك الطبلة ووضع الحصوة فى المقلاع واعتل قمة الجدار ، مال بجرعه وعرى ذراعه ، كان أبو زيد الهلالى قاهرا قاه ، رمى بمقلاعه فى الهواء وصرخ ، فارتخت عضلاته واعوج فكه وسال لعابه ، لكنه نسى أن يكبس ليده ، كانت قد سقطت . احتضن طبلته ، نظر على جلدها صاح بقوة « أين أنت » حاول أن يراها ، أن يبحث عنها ، أن يجد القبضة الصغيرة التى جذبته بقوة وسط الجمع . لكنه عجز ، اندفع وسط الناس ، خاض بحرهم ومضى ، كان يتجه صوب الغيط ، ولم يلتفت وراءه ، كان مأسورا بنداء قوى يجذبه ، والطبلة فى حضنه ، مائلة مستسلمة ، فلعله يجدها عند الغيط ، ولعله فى الصباح ، يستطيع أن يساعدها فى حش البرسيم ، ويلعب معها على دقات الطبلة .